

## التويزة في الريف الجزائري- مقارنة أنثروبولوجية في ريف حمالة ولاية ميلة-

### Tewiza in the Algerian countryside

#### An anthropological approach in the countryside of Hamala, Mila Province

د. حورية بودليو<sup>1\*</sup>

<sup>1</sup> جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2-(الجزائر)، مخبر مجتمع المدينة، horia.boudelliou@univ-constantine2.dz

|                         |                          |                            |
|-------------------------|--------------------------|----------------------------|
| تاريخ النشر: 2025/06/30 | تاريخ القبول: 2025/02/16 | تاريخ الاستلام: 2024/08/05 |
|-------------------------|--------------------------|----------------------------|

**ملخص:** نتناول في هذا المقال أحد أهم المظاهر المميزة للحياة في الريف الجزائري ألا وهي الممارسات التضامنية من خلال مقارنة أنثروبولوجية ميدانية قائمة على الملاحظة المباشرة والمقابلات الانثوجرافية للتويزة باعتبارها عملا جماعيا تطوعيا لفائدة الجماعة أو الفرد والتي تتجسد في كثير من المناسبات.

وقد توصلت الدراسة الى أن التويزة مازالت من بين أهم الممارسات التضامنية التي تميز ريف مجتمع البحث، وبالرغم من التغيرات السوسيوثقافية التي عرفها الريف جراء الحضرة والتكنولوجيا إلا أن التويزة مازالت تعرف استمرارية في ممارستها، وسكان الريف يسعون للمحافظة عليها باعتبارها موروثا ثقافيا لا مادي له من الإيجابيات على الساكن بالريف ما يستدعي استمرارها. كلمات مفتاحية: الممارسات التضامنية، التويزة، الريف، البحث الانثوجرافي.

**Abstract:** In this article, we discuss one of the most important distinctive aspects of rural life in Algerian society, namely solidarity practices, used a field anthropological approach to Tewiza based on direct observation and ethnographic interviews. The research aims to identify the forms of Tewiza in the rural environment, its various dimensions, and the changes that have occurred in it. Rural lifestyle has been transformed.

The study concluded that Tewiza is still among the most important solidarity practices that characterize the countryside of the research field. Moreover, despite the sociocultural changes that the countryside has witnessed, Tewiza knows a kind of steadfastness, and the rural population seeks to preserve this intangible cultural heritage because of its positive aspects. Resident in the countryside

**Keywords:** solidarity practices ; Tewiza ; countrysid ; ethnography research.

## 1. مقدمة:

يعرف المجتمع الجزائري تنوعا في موروته الثقافي اللامادي والمادي ما يفوق تصور الباحثين في هذا المجال، إذ أن ما تم تدوينه وحفظه قد لا يتعدى النذر اليسير من هذا الموروث بالنظر إلى المساحة الجغرافية الكبيرة لهذا البلد وتنوع طبوعه الثقافية من منطقة إلى أخرى، ومن بين أهم أشكال الإرث الثقافي الذي تشترك فيه مختلف القرى الجزائرية خاصة منها تلك التي تتميز بطابعها الريفي في الشمال الجزائري بشقيه الشرقي والغربي نجد التوزيع أو "تيويزي" \* التي تختلف تسميتها من منطقة إلى أخرى حسب اللهجة السائدة، إلا أن مضمونها ودلالاتها متقاربة نظرا لكون أصلها واحد، حسب الدراسات التاريخية والثقافية للمجتمع الجزائري فهذه العادات والممارسات الشعبية تعود إلى الإنسان الأمازيغي الأول الذي سكن في الشمال الإفريقي وارتبطت حياته بالأرض وخدمتها، فالتوزيع في الأساس هي عمل تطوعي تضامني ارتبط بالمجال الريفي ذو الطابع القبلي القروي، بالإضافة إلى طبيعة الأنشطة الاقتصادية التي مارسها أفراد هذا المجتمع ونمط حياتهم الذي يتطلب التعاون والتكافل من أجل إنجاز عمل ما وتحقيق الاحتياجات العامة لكل الأفراد، فما يميز الريف عن المدينة هو قوة الرابط الاجتماعي الذي يعود لقوة رابطة الدم والقرابة وحتى الجيرة، وقد حافظ المجتمع الجزائري على هذه العادات بالرغم من الثقافات والحضارات الكثيرة التي مرت من شمال إفريقيا، وجاء الإسلام فهدب هذه الممارسات وعزز من قيمها باعتباره دين يدعو إلى التعاون والتضامن في كل مناحي الحياة.

ظل الريف الجزائري محافظا على ثقافته التقليدية بمختلف مكوناتها المادية واللامادية بالرغم من محاولات الاستعمار الفرنسي لتدمير تلك البنية الثقافية والاجتماعية، ولكن منذ الاستقلال تغير التنظيم الاجتماعي الجزائري تغيرا ملحوظا، وتأثرت بعض من الملامح الريفية، فالظاهرة الحضرية التي رافقت البرامج التنموية الوطنية التي امتصت

\* Tiwizi كلمة أمازيغية تدل على شكل من أشكال التضامن الآلي، وهي عمل تضامني خاصة في مجالات الفلاحة.

رجالا وأسرا طالما ارتبطوا منذ الازل بالأرض وبالتقاليد المحلية، كما أن النمو السكاني والتدفقات البشرية والإنتاجات الاقتصادية وصيغ الفن، كل هذا كان له الأثر في إعادة تشكيل العلاقات الاجتماعية الأسرية منها والمجتمعية (ستورا ، 2012، صفحة 6) ، التي بدورها أثرت على القيم والعادات والممارسات خاصة في المناطق الريفية.

وبعد أن اشتهر الريف الجزائري بمختلف أشكال الممارسات التضامنية بشكلها الفردي من خلال مبادرة ميسوري الحال في مساعدة أهل قراهم بما يروونه مناسباً، أو في شكل عمل جماعي تطوعي من مختلف الفئات الاجتماعية سواء باتجاه الصالح العام لأهل القرية أو لفائدة فرد أو أسرة من القرية وهو ما نسميه التوزيع، عرفت هذه الممارسات نوعاً من التغير وهو ما سنحاول تناوله في مقالنا هذا.

فموضوعنا يتمحور حول استمرارية ممارسة التوزيع أو انحصارها في الوسط الريفي في علاقتها بالتحولات التي يعرفها هذا الريف من خلال مقاربة أنثروبولوجية قائمة على المنهج الاثنوجرافي الذي يركز على الملاحظات المباشرة والمشاركة في مختلف نشاطات مجتمع البحث من خلال طرح تساؤل عام مفاده: كيف تتجلى مظاهر التضامن الاجتماعي في الريف الجزائري، وكيف أثر التوسع الحضري والديمقراطي في هذا الريف على ممارسة التوزيع باعتبارها أهم مظاهر الحياة فيه؟

هذه الدراسة التي حققناها ميدانيا من خلال التواجد في أرياف بلدية حمالة التابعة إداريا لولاية ميله، بقراها المترامية في المناطق الجبلية التي طالتها مشاريع التوسع العمراني ومعها الديمغرافي، وخاصة منها مشتتة البور ومركز البلدية، سنحاول أن نعطي لكم صورة مونوغرافية عن ميدان البحث وخصائصه بهدف الوصول الى فهم معنى التوزيع كأهم شكل من أشكال التضامن في الريف، بالإضافة الى وصف أهم مظاهر التوزيع ومجالاتها النوعية المناسبة. مع توضيح التغيرات التي عرفت وأسابيب هذه التغيرات.

## 2. الأطر المنهجية للدراسة

### 1.2 مونغرافيا قري البحث:

تمت الدراسة الميدانية في بلدية حمالة بقراها المبعثرة في سفح جبل مسيد عيشة الذي هو جزء من سلسلة الاطلس التلي ، وبالضبط على السفح الجنوبي لهذا الجبل الذي يتعدى ارتفاعه 1462 كم، و تعتبر منطقة انتقالية بين السلسلة التلية ومنطقة السراوات، مشرفة على حوض ميلة ومجرى الواد الكبير، تقع البلدية في أقصى الشمال الشرقي لولاية ميلة متربعة على مساحة قدرها 63,15 كم مربع، قدر عدد سكانها حسب احصائيات 2004 للديوان الوطني للإحصاء ب 11564 نسمة موزعين على مركز البلدية وقري بكثافة سكانية غير متساوية تقدر ب 1,82 نسمة/كم مربع. إداريا تابعة لدائرة القرام قوقة، أصبحت بلدية مند التقسيم الإداري لسنة 1984، يحدها شمالا ولاية جيجل ببلديتين هما غباله ميلاط وسيدي معروف، جنوبا بلدية القرام قوقة، وغربا بلدية الشيقارة أما شرقا فتحدها جبال وغابات بونعجة التابعة لولاية قسنطينة.

تتميز المنطقة بطابعها الجبلي يمكن تقسيمه الى أربع مناطق وهي منطقة الجبال وسفوح الجبال، منطقة التلال ومنطقة الوديان إذ يمر عبرها كل من الواد الكبير وواد الذيب، تتميز بطابعها الزراعي المعاشي خاصة زراعة البقول الجافة، بالإضافة إلى كونها من أهم المناطق الغنية بأشجار الزيتون والرمان واللوز والتين و التين الشوكي خاصة في المناطق الواقعة بسفح الجبل لما تتميز به من تربة طينية خصبة صالحة للزراعة، وأهم القرى والمشاتي الموجودة هناك نذكر: هباشة، عين البيضة، عين قمرة ، المشيته، عن الحمام وهي مناطق مازالت تحافظ إلى اليوم على طابعها الريفي وزراعتها المعاشية التي تتميز بجودة منتوجاتها لاحتوائها على الينابيع وآبار المياه العذبة. بالإضافة إلى مشته البور وشقليبي مخلوق والوصاف وحمالة مركز التي تعتبر من أهم المشاتي التي تعرف توسعا عمرانيا وديموغرافيا بالإضافة إلى البادسي وحمام بني هارون. (بلدية حمالة، 2022)

تاريخيا تنتمي بلدية حمالة التابعة إداريا الى القرارم قوقة للمنطقة الثانية بالولاية الثانية، وكانت حسب شهادة بعض مجاهدين معبرا لطريق السلاح من الشرق باتجاه الوسط،، حيث يحتوى جبل مسيد عيشة على مغارات وممرات سرية لم تكتشف إلى اليوم، كما كان لها معارك كثيرة مع الاستعمار خاصة سنتي 1955 و1956، بالإضافة إلى أحداث مغارة كاف السما\* بجبل مسد عيشة، هذه المغارة التي مازالت لحد اليوم تحمل في أغوارها رفاة مجاهدين تمت إبادتهم إبان الثورة التحريرية من طرف الاستعمار الفرنسي سنة 1958 من خلال سد باب المغارة بالإسمنت المسلح ودفنهم أحياء هناك، مع تعدد الروايات الشفوية التي تكاد أن تفقد بموت مزامني تلك الأحداث، كما أنه لا يوجد أحد يعلم لا أسماء شهداء المغارة ولا أصولهم، وتعتبر معركة المغلف أيضا من بين أهم المعارك التي يتذكرها كل من عايش الأحداث باختلاف عمره وهي ومعركة قتل فيها عدد كبير من الجنود الفرنسيين بالإضافة الى مقتل قائدهم وهو الضابط الفرنسي المكنى بالمغلف بمنطقة البور. (أحمد ، 2022)

الدراسة الميدانية ركزت على منطقتين هامتين في البلدية وهما تلك القري الواقعة في سفح جبل مسيد عيشة وهما: "هباشة عين قمرة هي مناطق حافظت على طابعها الريفي وقلة كثافة سكانها بالإضافة ووجود روابط قرابة ومصاهرة بين عائلاتها، وتتميز بمحافظتها على مجموع العادات والتقاليد الشعبية المرتبطة بالسكان والمنطقة وخاصة التوزيع، وفي المقابل مشته البور التي تقع غرب مركز البلدية في الضفة الجنوبية لواد الذيب، التي بالرغم من حداثة نشأتها بالمقارنة مع مشاتي سفح الجبل إلا أنها تعرف من التوسع الديموغرافي والعمراني ما كان له الأثر في مختلف عادات وممارسات ساكنها، حيث أن تسميتها بالبور ترجع لكونها من الأراضي المقفرة والخالية من السكان حتى بداية القرن العشرين (أحمد ، 2022)، أين تم ترحيل بعض عائلات المناطق الجبلية المحاذية لجبل مسيد عيشة وجبال

\* مغارة كاف السما، او كما تسمى محليا غار السما، عبارة عن احدى المغارات الموجودة بجبل مسيد عيشة ببلدية حمالة، والتي تعتبر أحد اهم المغارات الشاهدة على وحشية الاستعمار الفرنسي في المنطقة

الميلية وسيدي معروف من طرف الاستعمار الفرنسي في محاولة منه لفصل الشعب عن الثورة، واستمر تعمير المنطقة من حينها، وزادت حركة التعمير والنزوح من المناطق الغابية والجبلية الى هذه القرية في فترة العشرية السوداء باعتبارها منطقة مكشوفة وخالية من الغابات.

ركزنا في بحثنا الميداني على ثلاث قرى من بين القرى المذكورة سابقا، من أجل تسهيل الوصف وعقد مقارنات توصلنا الى فهم أثر التوسع الحضري والعمراني في ممارسة التوزيع بهذه المناطق، وهي قرية هباشة وعين قمرة باعتبارهما من القرى الموجودة بسفح الجبل والتي تتميز بمحافظتها على طابعها الريفي كما ذكرنا سابقا، بالإضافة إلى قرية البور التي كانت تتميز وإلى فترة ما بعد الاستقلال بقلّة سكانها، الا أنها عرفت نوعا من الحضرية والتوسع الديموغرافي خاصة خلال العشريتين الأخيرتين.

## 2.2 مجتمع البحث والاعبارين:

شملت الدراسة الميدانية أفراد قرى ميدان البحث وهم مجموع الساكنة بقرية البور كمثال عن القرى التي عرفت توسعا ديموغرافيا وتأثرا بالحضرنة، بالإضافة الى مجموع سكان القرى الجبلية -هباشة، عين قمرة- التي حافظت على طابعها الريفي التقليدي بنسب متفاوتة سواء في الروابط الاجتماعية أو في العادات والنشاطات الاقتصادية الممارسة. وقد اعتمدنا في تحصيلنا للمعطيات الكيفية الدقيقة حول التوزيع والتغيرات التي تعرفتها بالاعتماد على مجموعة مخبرين الذين قمنا معهم بمقابلات ميدانية، تمت عملية اختيارهم بالاعتماد على معايير دقيقة ككبر السن والثقافة المحلية، وحسن الاطلاع على كل تفاصيل الحياة في القرية، كانوا أربع رجال وثلاثة نسوة تتراوح أعمارهم ما بين 60 و 77 سنة لما لهم من اطلاع بالتاريخ الاجتماعي والثقافي للمنطقة وخاصة إبان الفترات الأخيرة للاستعمار وما بعد الاستقلال، كما أنهم عايشوا مختلف التغيرات التي عرفها الريف وخاصة منذ الاستقلال وإلى اليوم.

### 3.2 منهج البحث وتقنياته:

اعتمدنا في بحثنا هذا على المنهج الاثنوجرافي القائم على البحث الميداني المكثف، فالأثنوجرافيا هي الاثنولوجيا الوصفية، أي ملاحظة وتسجيل المادة الثقافية من الميدان، وهي تعني أيضا وصف أوجه النشاط الإنساني الثقافي كما يبدو من خلال دراسة الوثائق التاريخية (هولتكرانس ، 1982 ، صفحة 15) فاستخدامنا للمنهج الاثنوجرافي كان هدفه وصف عادة التوزيع بقرى ميدان البحث من خلال تصوير دقيق لمختلف المراحل والمناسبات التي تقام فيهما هذه الممارسة، ومن أجل الوصول الى فهم وتفسير أشكال التغيرات الثقافية التي عرفتها التوزيع فقد اعتمدنا على المنهج المقارن في الزمان ، أي بين الماضي والحاضر ، وفي المكان ، أي بين تلك القرى التي حافظت على نمط معيشتها الريفي التقليدي ، وبين تلك القرى الريفية التي مستها الحضرية في جوانب من حياتها.

بما أن منهجنا الأساسي هو المنهج الاثنوجرافي فقد اعتمدنا بالدرجة الأولى على الملاحظة كأهم تقنية يستخدمها الباحث الانثروبولوجي في الميدان، وقد كانت بسيطة في غالبيتها، مع اعتماد المشاركة في بعض مراحل البحث من خلال مشاركة أفراد المجتمع في مختلف النشاطات التحضيرية المتعلقة بالتوزيع خاصة تلك المرتبطة بالتوزيع النسوية اعتبارا لجنس الباحثة. بالإضافة الى المقابلة نصف الموجهة لما تتميز من قدرة في تحصيل معطيات كيفية كثيرة والتي تمت مع مجموع المخبرين الذين تم اختيارهم بعناية من خلال التواجد المستمر في الميدان.

### 4.2 التوزيع، المفهوم الاصطلاحي والاجرائي:

التوزيع جزء من التراث بصفة عامة الذي يعبر عن عناصر الثقافة التي تتناقل من جيل الى آخر، والذي ينقسم إلى تراث شفهي وتراث شعبي ورواية شعبية خاصة الحكاية الشعبية ويرى هيرسكوفيتس أن التراث مرادف للثقافة لو أن استعمالها قد اكتسب مضامين من أنواع مختلفة أو صفات مختلفة للسلوك الاعتيادي. وقد عرف التراث في إحدى حالات البحث للاركيولوجيا الامريكية بأنه " شكل ثقافي يتناقل اجتماعيا ويصمد عبر الزمن"، كما

أنها جزء من التراث الشعبي الذي يعبر عن المواد الثقافية الخاصة بالشعب (الثقافة العقلية والاجتماعية والمادية) أو هو العناصر الثقافية التي خلقها الشعب،...فالتراث الشعبي هو عبارة عن المعتقدات والعادات الاجتماعية الشائعة وكذلك الرواية الشعبية. (هولتكرانس ، 1982 ، صفحة 88) .

أما إذا ما اعتبرنا التوزيع من العادات الشعبية فنحن نقصد بها مجموع العادات الاجتماعية وأنماط السلوك النمطي المميز لمجتمع أو شعب ومعين، والعادة الاجتماعية تعني التراث الثقافي أو أشكال السلوك المعتاد داخل جماعة اجتماعية معينة. وعندما ندرس التراث فإننا نحلل الأفعال التي تخلق النظم الثقافية من خلال عمليات التفاعل الاجتماعي. (سيمور ، 2005 ، صفحة 364)

ويمكن تعريف التوزيع بأنها شكل من أشكال العمل التضامني في المجتمع الجزائري بمختلف تركيباته الاجتماعية، وأصوله، ولكنها ارتبطت أكثر بالريف الجزائري لما يتميز به من بنية متلاحمة ومتناسقة، وهو عمل يتبادل فيه الأفراد والعائلات القروية العون فيما بينهم من أجل إنجاز تلك الاعمال التي تتطلب يد عاملة كثيرة وقد عرف في القاموس الفرنسي الالمازيغي " التوزيع هي التعاون بين الافراد لإنجاز عمل مستعصي بطريقة جماعية ويصعب إنجازه فرديا " (dallet, 1982, p. 883) ، ولأن العمل الريفي في مجمله هو عمل شاق لارتباطه بالفلاحة وعمل الأرض والأعمال اليدوية فقد كانت التوزيع هي السبيل الوحيد لتحمل مشاق العيش فيه.

حسب تعريف محمد سعيدي: "فالتوزيع هي مصطلح شعبي تعني التعاون والمساعدة، ومنه اشتقت العبارة الشعبية: "الجماعة توزت لفلان" أي أن عددا من الأفراد الذين لهم أصل قرابي واحد أو جغرافي أو إثني أسرعوا لمساعدة من هو في حاجة للمساعدة من أجل تحقيق حاجة إنسانية خاصة وشخصية أو حتى عامة لمن يعجز عن تحقيقها بمفرده، والتوزيع هي ممارسة ثقافية واجتماعية واقتصادية تمتاز بحضورها القوي في المجتمع الريفي

التقليدي وتكاد تنعدم في المدينة"، (سعيد، 2007، صفحة 89) وذلك لاختلاف التركيبة الاجتماعية والاقتصادية والبيئية لهذين الفضاءين.

وقد شملت التوزيع بتلك القرى محل الدراسة العديد من الأنشطة كما قالت إحدى المبحوثات: "كنا نتوزوا في كل شيء، في الحرث، في الزرع، في الزيتون، في الحصاد و الدرس، في الصوف، الفتل، السداية و حتى في المأكلة كيما يقولوا المعاونة تغلب السبع' (ر)، (2023)، بمعنى أن التوزيع كعمل تضامني حسب هذه الدراسة يشمل مختلف الأعمال التي كانت تحتاج الى يد عاملة كثيرة في ظل غياب التكنولوجيا المساعدة في فترات سابقة وخاصة في حراثة الأرض، وزرعها، والحصاد والدرس، بالإضافة الى جني الزيتون، وبناء المنازل بمختلف مراحلها، أما بالنسبة للأعمال الخاصة بالنساء فقط فكانت التوزيع تشمل غسل الصوف وغزله، وحيافته، وأعمال النسيج، بالإضافة الى تحضير الكسكس بكميات كبيرة لحفلات الزفاف أو المآتم، أو العولة السنوية عند ميسوري الحال.

### 3. التوزيع في الريف بين التغير والاستمرارية:

#### 1.3 التوزيع في قرى البحث:

لطالما كان الريف الجزائري ومازال ركيزة للمجتمع الجزائري ومحوره الثقافي، وخاصة أثناء الفترة الاستعمارية وما بعدها، فبالرغم من ازدواجية نمط الحياة في المجتمع بين الحضر والريف إلا أن الحياة الحضرية في الجزائر مازالت وإلى اليوم تتسم بمظاهر الحياة الريفية في بعض من جوانبها خاصة الثقافية منها، كما نلاحظ اليوم انتقال بعض السمات الحضرية إلى الريف الجزائري مما أدى الى تغير الكثير من مميزاته وخصائصه الريفية التقليدية.

من أهم مقومات المجتمع الريفي الجزائري هو قيامه على علاقات القرابة والمصاهرة بين أفراد، والعيش من خلال استغلال الأرض استغلالا مباشرا مع ملكية الأسر للأراضي الفلاحية والرعية ووسائل الإنتاج التقليدية أو الحديثة، هذه الخصائص كانت السبب في ظهور ممارسات اجتماعية تنم عن تضامن وتكافل المجتمع الريفي في مختلف المناسبات

والظروف وكانت التوزيعة في مختلف الاعمال رمزا لذلك، كما أنها بالإضافة إلى قيم التعاون والتكافل المرتبطة بها، فهي تهدف إلى نشر المحبة وروح الإخاء والغاء الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين أفراد القرية الواحدة.

استمر الريف الجزائري في ممارسة عادة التوزيعة، فكانت من بين أهم السمات الثقافية التي تدخل في هوية هذا الريف، ويعتبر ريف بلدية حمالة ولاية ميله وبعض قرراها التي حافظت نسبيا على طابعها الريفي من بين القرى الريفية الكثيرة التي استطاعت أن تحافظ على هذه الممارسة في بعض من جوانبها، بالرغم من عوامل التغير الكثيرة التي عرفتها خلال المراحل المختلفة، بداية بالاستعمار الفرنسي الذي عمل على طمس معالم الهوية الثقافية الوطنية، لتأتي مرحلة ما بعد الاستقلال وهي مرحلة البناء والتشييد والتي استوردت فيها الدولة برامج تنموية مختلفة حاولت من خلالها إعادة إعمار الجزائر، فركزت أكثر على الجانب الحضري فكان له تأثير كبير على المناطق الريفية التي عرفت توسعا حضاريا هي الأخرى خاصة بعد سنوات الثمانينات من القرن الماضي، وزادت حدة التأثيرات في العشرينيتين الأخيرتين.

فالتوزيعة من أهم العادات التي ميزت المجتمع الريفي والقائمة على تضامن آلي أساسه تبادل المنافع والخيرات الطبيعية والبشرية والإحساس الجمعي، (بوردو، 1998، صفحة 45)، ويمكن اعتبارها شكل من أشكال التبادل التي سماها مارسال موس الهبة، (موس، 2011)، ولكن هنا الفرد يهب وقته وجهده في مساعدة أهل قريته، وتكون تلك الهبة تبادلية، أي أعينك أنا اليوم لتعيني إذا احتجتك يوما ما، فهي عملية تبادلية لوسائل الإنتاج واليد العاملة والتعاون في مختلف المناسبات والمواسم، كما يقول أهل القرية في مثلهم الشعبي: "المعاونة تغلب السبع" ومثل آخر يقول: "المعاونة مليحة ولو في المتمدن" بالإضافة إلى مثل يعبر على ضرورة استمرار ذلك التعاون المتبادل وهو: "من عندي ومن عندك تنطبع ومن عندي برك تنقطع"، لأن ذلك التكافل والتعاون في أغلب الأحيان يعود بالنفع على المجتمع ككل لما له من أبعاد اجتماعية وثقافية وحتى اقتصادية وتنموية على المجتمع الريفي ككل.

عرف ريف ميدان البحث تغيرات بدرجات متفاوتة، بالرغم من محافظة الكثير من المناطق على طابعها الريفي لعدة عوامل خاصة منها الطبيعية والاجتماعية، إلا أن ظاهرة الحضرية والتوسع العمراني وارتفاع الكثافة السكانية للريف كانت من نصيب العديد من القرى الريفية لما تتوفر عليه من مؤهلات ايكولوجية واجتماعية.

في الوقت الذي استطاعت بعض القرى الريفية المحافظة على نمط معيشتها الريفي، وتركيبها الاجتماعية القائمة على القرابة وامتلاك الأراضي بسبب موقعها الجغرافي الجبلي خاصة قرية هباشة وعين قمرة، استطاعت معها أن تحافظ على عاداتها التضامنية المتمثلة في التوزيع، الا أن قسما كبيرا من الريف قد اجتاحه التغير الثقافي باعتبار أن كل تغير يحدث في عنصر من عناصر الثقافة مادية كانت أو غير مادية يؤدي الى تغير البناء الثقافي ككل، نظرا لارتباط الثقافة بالتنظيم الاجتماعي فإننا لا نلاحظ التغير الذي يحدث في الثقافة وانما نلاحظ انعكاساتها في التنظيم الاجتماعي (رشوان ح.، 2008، صفحة 36)، فالتغير الحاصل في المجتمع الريفي هو محصلة عوامل خارجية وأخرى داخلية، أهمها التكنولوجيا، والكثافة السكانية، كما أنه نتاج تراكمات اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية، وبالنسبة للريف ميدان البحث فإن لسياسات التنمية الريفية التي طبقت في فترات متتالية بعد الاستقلال الدور الأكبر في تغيير السمات الاجتماعية والثقافية لهذا الريف، كما أن الكثافة السكانية لعبت دور كبير في تغيير القيم الريفية والنظرة للحياة، فبعد أن كان النظام الاجتماعي والثقافي في الريف يعرف نوعا من توازن واستقرار منظومة القيم، مثل قيم التضامن والتعاون وقيم الجماعة التي لطالما قامت على نظام الجماعات الأولية ( أسرة ، أسرة موسعة، جماعة الجيران)، أدى التوسع الديموغرافي والحضري إلى ظهور جماعات ثانوية تتميز بطابعها الرسمي المعقد، فظهرت القيم الفردية والاستقلال الاجتماعي الذي خلفته التكنولوجيا الحديثة، فعوضا من أن يعتمد الفرد على سواعد أهله وجيرانه في بناء بيته، أصبحت هناك آلات حديثة تقوم بهذا الفعل فأزاحت معها القيمة المعنوية لذلك التضامن الآلي العفوي الذي كان يزيد من قوة الروابط الاجتماعية بين أفراد

الريف الواحد. فتلك العلاقات الوثيقة بين الجيران أو بين أفراد الأسرة الواحدة تصبح أقل عمقا وحرارة، وكلما تحرر الفرد من الجماعة كلما أصبح قادرا على اختيار الصحبة التي يريدها من ذلك العدد الهائل من الأشخاص الذين يتعامل معهم. (رشوان ح.، 2008، صفحة 228)

### 2.3 التوزيع في الريف وتأثرها بالظاهرة الحضرية:

أولا علي أن أشير الى نقطة مهمة في دراسة الظاهرة الحضرية وأثرها في التوزيع باعتبارها من أهم العادات والممارسات الشعبية التي ارتبطت بالريف الجزائري، فنحن هنا لا نقصد دراسة المدينة، وإنما ندرس الظاهرة الحضرية وأثارها على النسق الاجتماعي الكلي فالحضرية تعمل على تحول الحياة الريفية الشعبية، فتخلق حياة حضرية جديدة، إذ لا يمكن الفصل بين نمو المدن وتشكيل العلاقات الاقتصادية والسياسية بالمناطق الريفية، وعلى ذلك فآثار الحضرية تشمل الأنماط المتغيرة للتركيب السكاني والتنظيم السياسي والاقتصادي للمجتمع المحلي الريفي نتيجة الاعتماد المتبادل بينها وبين المراكز الحضرية. (سيمور ، 2005، صفحة 201).

من أهم المناسبات والمواسم التي ارتبطت بممارسة عادة التوزيع، نجد الموسم الفلاحي بمختلف مراحلها بداية بإعداد الأرض للفلاحة إلى حرثها فزراعتها من ثم جني المحاصيل باختلافها، وحسب الدراسة الميدانية والمقابلات مع مختلف أعيان المناطق المختارة من العارفين بالتغيرات التي عرفها المجتمع الريفي، فإن أهم أسباب تراجع المجتمع الريفي اليوم عن ممارسة التوزيع في الفلاحة هو أنها لم تعد النشاط الاقتصادي الأساسي الذي يعتمد عليه السكان ، فهو يعتبر ثانويا أو غائبا عند أغلب الأسر الريفية اليوم، حيث يشهد الريف اليوم تنوعا هائلا في المهن تلك المهن التي بعدت تماما عن النشاط الزراعي المعاشي، فساكن الريف اليوم مثلهم مثل ساكن المدن يميلون الى الحصول على وظيفة في إحدى القطاعات الاقتصادية والخدماتية الأخرى التي تعود عليهم بأجر مادي ينفقونه في تلبية مختلف احتياجاتهم التي تتوفر اليوم في الأسواق الحضرية. فحتى تلك الزراعة

المعاشية لم تعد بالشائعة في المجتمع الريفي بتحول أغلب الفلاحين الى زراعة المحاصيل النقدية التجارية، وخاصة بعد ظهور المشاريع الرأسمالية المتمثلة في انتشار تربية الدواجن وإنتاج اللحوم والبيض، وتربية الأبقار والنحل، هذه النشاطات الفلاحية التي تعتمد اليوم بالدرجة الأولى على التكنولوجيا الحديثة في العمل الزراعي، بالإضافة الى الرأسمالية ونمط العمالة بأجر فبعد أن كان النمط الشائع في الريف ميدان البحث هو الفلاحة وهو العمل العائلي القائم على التعاون والتضامن والمزاملة (رشوان ح.، 2008، صفحة 215)، أصبح أغلب ساكنيه يمارسون أعمال حرة او وظائف حكومية.

كما أن الثورة التكنولوجية في المجال الزراعي كان لها الدور الكبير في تراجع ممارسة عادة التوزيع المرتبطة بالنشاطات الفلاحية في الوسط الريفي، حيث أن الحصاد بالحاصدة بدل المنجل أدى إلى عدم الحاجة إلى يد عاملة كثيرة التي كانت في الغالب تكون بجمع أفراد الأسرة الكبيرة للقيام بهذا الأمر في شكل عمل تضامني يسمى التوزيع، " نتوزوا في الحصاد، والدريسة تاع القمح و الشعير، كما نتوز في الفلاحة و كل شيء مربوط بها" (ت،أ، 2023)، كما أن لتلك الثورة التكنولوجية دور كبير في التخلي المتزايد لسكان الأرياف عن ممارسة النشاط الزراعي، وتوسع عملية الاتصال بين المناطق الريفية والمدن والحوضر ذلك الاتصال الذي كان له تأثيراته على قيم المجتمع الريفي وخاصة تلك المتعلقة بالتعاون والتضامن. بالرغم من غياب التوزيع في مجال الفلاحة إلا أن هناك بعض النشاطات والأعمال التي استمر الرجال في ممارستها بالرغم من تدخل التكنولوجيا فيها وذلك من أجل الحفاظ على قيم التعاون والتضامن وما لها من أبعاد في حياة الريفيين وأهمها التوزيع في بناء البيوت بمختلف مراحلها.

بالنسبة للتوزيع السنوية فقد كانت مرتبطة في قرى ميادين البحث بنشاطين أساسيين وهما غسل الصوف وغزلها وحياتها، بالإضافة الى إعداد الكسكس - فتل البروشة باللهجة المحلية- وخاصة ذلك المتعلق بالاستعداد للأعراس والافراح و المآتم والعولة السنوية باعتبار أن الكسكس هو الطبق الرئيسي في مختلف المناسبات، حيث تجتمع كل نسوة

القرية لإعداد كسكس العرس أو المأتم، ويكون هذا العمل تبادلي، أي أن النسوة ينتقلن من بيت إلى آخر خلال فصل الربيع والخريف لإعداد كميات معتبرة من الكسكس، كما تقول السيدة ر، ح: "كنا غير يدخل الربيع ويدفا الحال أو تخرج الصيف ويرد الحال شوية نبدأو الفتيل، كل يوم في دار، ندورو على الجيران كامل، نفتلو قنطار او زوج تاع السميد بربوشة، ونخبويه للعولة و الا اذا كان عرس، و لا للموتات بعيد الشر" (ح ، 2023) ، بمعنى : "بمجرد دخول فصل الربيع و ذهاب برد الشتاء القارس أو عندما يأتي الخريف ويذهب حر الصيف الشديد، تبدأ النسوة في التوزيع لصناعة الكسكس، من خلال انتقال نسوة القرية الواحدة من منزل الى آخر لإعداد كميات كبيرة من الكسكس لكل أسرة من أجل الاستهلاك السنوي أو من أجل الأعراس، أو الجنائز إذا قدر الله"، وترتبط التوزيع في الكسكس بفصلي الربيع و الخريف لأنها فصول معتدلة تسمح بإعداد أجود أنواع الكسكس، فالخبرة العملية للمرأة مكنتها من توارث هذه الخبرات في العمل و مواقيته المفضلة.

تعرف التوزيع المتعلقة بإعداد الكسكس اليوم تراجعاً كبيراً، الا في حالات نادرة أين حافظت بعض الأسر الكبيرة والجيران الذين تعود علاقات جيرانهم لسنوات كثيرة على هذه العادة. ولكن بصفة عامة يمكن أن نقول أن التوزيع في إعداد الكسكس قد غابت اليوم في الريف الجزائري لتغير تركيبته الاجتماعية وقيمته وثقافته الغذائية بصفة عامة، حيث أن الكسكس لم يعد من الأطباق الدائمة الحضور في المائدة الجزائرية وأصبح إعدادة يقتصر على بعض المناسبات لوجود بدائل حديثة ومتوفرة في الأسواق، بالإضافة الى تحول بعض النساء العارفات بهذه الصنعة الى العمل المأجور والتجاري، أي عوضاً من تطوعها لمساعدة جارتها في إعداد الكسكس، أصبحت تعددها في منزلها مقابل قيمة مادية معتبرة تساعد في مصاريفها واقتصادها البيتي، أو تعدده وتوجهه للتسويق.

أما بالنسبة للتوزيع في غسل الصوف فكانت من الممارسات الاجتماعية التي ميزت التضامن النسوي في القرى الريفية التقليدية عندما كان الصوف هو المادة الأساسية للكثير من ملابس واثاث المنزل، بالإضافة الى ممارسة كل الأسر الريفية لمهنة الرعي

وامتلاكهم للأغنام المصدر الأول للصوف بالمنطقة، ويكون موسم غسل الصوف في نهاية فصل الربيع وبداية الصيف في وديان المنطقة نظرا لنظافتها وعذوبتها وخاصة "واد الذيب"، تتم التوزيع في غسل صوف العروس وإعداد جهازها من أفرشة وأغطية وحتى ألبسة، وتتمر العملية بالغسل ثم التجفيف فخيطة الأفرشة أو حياكة الزرابي والألبسة، وقد تأثرت هذه الممارسة اليوم خاصة بعد التأثير الكبير للوسط الريفي بالظاهرة الحضرية، حيث لم تعد اليوم هناك توزيع متعلقة بغسل الصوف في ظل تعدد المنتوجات الصوفية الجاهزة في الأسواق الحضرية، وتفضيل الأسرة الريفية لما تبيعه تلك الأسواق، بالإضافة إلى تراجع كبير في تربية المواشي والأغنام في هذه القرى لتوجه أفرادها نحو النشاطات الأخرى غير الفلاحة وتربية الحيوانات.

فقد لعبت الظاهرة الحضرية وتأثيراتها على الريف دورا كبيرا في انحصار ممارسة التوزيع في بعض القرى الريفية بولاية ميله وخاصة في مجالات الفلاحة وغسل الصوف وصناعة الكسكس. ولكنها استمرت في بعض المجالات أهمها بناء البيوت أو تهيئة الأماكن العمومية وبناء المساجد كنشاط ذكوري.

### 3.3 أسباب استمرار التوزيع في قرى دون أخرى:

من خلال الدراسة الميدانية وبالاعتماد على تلك المقارنة التي قدمها الاستاذ محمد سعدي في مقاله المذكور سابقا استطعنا أن نعقد مقارنة بين النظم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية لتلك القرى المختارة كميدان للبحث والجدول التالي يوضح ذلك:

الجدول1: مقارنة بين خصائص قرى البحث وعلاقتها بالتوزيع

| قرية البور                                                    | مشة هباشة وعين قمره                                                                       |
|---------------------------------------------------------------|-------------------------------------------------------------------------------------------|
| تأثرت بظاهرة الحضرية مع وجود الطابع الريفي                    | تحافظ على طابعها الريفي التقليدي                                                          |
| توسع عمراني وديموغرافي كبير منذ سنة 1988، هجرة نحو هذه القرية | عدد السكان قليل ومحدود، عدد المباني محدود، حركة هجرة باتجاه مركز البلدية والمراكز الحضرية |
| الفضاء الجغرافي مفتوح يعرف توسعا                              | الفضاء الجغرافي محدود ومغلق                                                               |
| العلاقات الاجتماعية متشعبة تجمع بين منطق القرابة              | العلاقات الاجتماعية خاضعة لمنطق القرابة بأنواعها                                          |
| بأنواعها، بالإضافة إلى منطق المصلحة وتعدد                     | دموية واثنية                                                                              |

| الوظائف.                                                                                                              |                                                                                                                                                                          |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| العائلة هي عنوان الأسماء، مثلا ولاد فلان وفلان، وكلهم معروفين عند بعضهم البعض الصغير منهم والكبير.                    | تراجع العلاقات القرابية والأسرية وبداية انتشار النزعة الفردية للانتماء مع ظهور جيل جديد ليس بالمعروف لدى كل سكان القرى.                                                  |
| المحافظة على نمط السكن الجماعي (الدار الكبيرة والحوش، مع حقل "بحيرة" لممارسة الفلاحة المعاشية) وملكية خاصة للفضاء.    | ازدواجية في أنواع السكن، حيث يوجد السكن التقليدي اي الدار الكبيرة والحوش والحقل والملكية الخاصة للفضاء، مع وجود السكن الافقي الجماعي والسكن الفردي المغلق.               |
| التنظيم السياسي المحلي: جماعة القرية، وكبارها                                                                         | التنظيم السياسي المحلي: جمعية المسجد، وممثلي الاحياء المنتخبين.                                                                                                          |
| النشاط الأساسي هو الفلاحة وتربية الابقار والغنام والدواجن، والنحل، بالموازة مع ممارسة مهن مأجورة في الفضاءات الحضرية. | النشاط الأساسي متنوع ومفتوح، مع ممارسة الفلاحة وتربية الأغنام والابقار لم امتلك قطعة ارض كنشاط ثانوي.                                                                    |
| استمرارية لظاهرة التوزيع والنشرة كممارسات تضامنية وتكافل وتعاون بين سكان القرية الواحدة في مختلف المناسبات.           | تراجع كبير لظاهرة التوزيع والنشرة كممارسات تضامنية نظرا لتراجع الروابط الاجتماعية وتوسع الفضاء الايكولوجي وتنوع النشاط الاقتصادي في هذه القرى التي تعرف نوعا من الحضرية. |

المصدر: من إعداد الباحثة.

من خلال قراءتنا للجدول نلاحظ ان استمرارية التوزيع ترتبط في الأساس بمحافظة المناطق الريفية على نمط العيش الريفي التقليدي، وقلة عدد السكان ونوعية الروابط الاجتماعية بين سكانه والقائمة أساسا على روابط الدم والمصاهرة، بالإضافة الى المحافظة على نمط السكن الفردي الذي يضم أسر كبيرة وموسعة، كما انها تعتمد في تسيير شؤونها الداخلية على جماعة القرية أو كبارها. وكلها عوامل تحرص على استمرار قيم الجماعة والتضامن الاجتماعي ومنه استمرارية الكثير من العادات والممارسات والقيم الاجتماعية التضامنية كالتوزيع.

#### 4. خاتمة:

إن العادات والتقاليد الشعبية هي الطابع المميز للشعوب، وقد تعددت الممارسات الشعبية وتنوعت خاصة في المجتمع الذي به بعض الخصوصيات الاجتماعية والثقافية

والاقتصادية كالمجتمع الريفي، و من بين هذه الممارسات نجد التوزيع التي هي من بين محددات الهوية الثقافية للمجتمع الريفي الجزائري المحافظ على بنية اجتماعية واقتصادية وثقافية تقليدية، ولكنها عرفت تراجعاً كبيراً في ممارستها وحتى غيابها تماماً في ذلك الريف الذي عرف نوعاً من الحضرية وهو ما توصلنا إليه من خلال دراستنا الميدانية الاثنوجرافية في قرى بلدية حمالة التي انقسمت الى قرى ومشاري محافظة على طابعها الريفي، لما تتوفر عليه من شروط خاصة الطبيعية والاجتماعية منها لتموضعها في سفوح الجبل، مع محافظتها على تركيبها الاجتماعية القائمة على علاقات القرابة، بالإضافة الى قرى أخرى نالت منها الحضرية لأسباب طبيعية تموضعها في مناطق الهضاب التي تسمح بالتوسع العمراني ومنه الديموغرافي، بالإضافة الى عوامل أخرى كالسياسة السكانية و الملكية العمومية للأراضي وغيرها التي غيرت من تركيبها الاجتماعية، ومنه تغيرت عاداتها و قيمها وخاصة قيم التضامن والتآزر التي كانت تتجسد من خلال ممارسة التوزيع.

بعدما كانت التوزيع هي النمط المميز للعمل في الوسط الريفي الذي يشمل الفلاحة بمختلف مراحلها من حرق وزرع الى حصاد، بالإضافة الى اعمال البناء وشق الطرقات، كأعمال تميزت بطابعها الرجولي، مروراً الى اعداد العولة المكونة من الكسكس كأهم طبق في المائدة الجزائرية بصفة عامة، وغسل الصوف وغزله واعداد بعض أنواع الألبسة والتي ترتبط أساساً بالتوزيع النسوية.

تغير نمط المعيشة في الريف فتغيرت معه أساليب تحقيق مختلف الاحتياجات، فلم تعد هناك حاجة الى السواعد البشرية للقيام بالأعمال الشاقة كالصيد وغسل الصوف واعداد الكسكس، وحلت محلها الآلات والأجهزة والأسواق التي أصبحت توفر كل ما يحتاجه الانسان باختلاف مستواه المعيش.

ولكن رغم التغيرات الكبيرة التي عرفتها المناطق الريفية ميدان البحث الا أن التوزيع مازالت تعرف نوعاً من الصمود والاستمرارية في الممارسة وخاصة لما لها من أبعاد اجتماعية واقتصادية وثقافية على المجتمع المحلي وأفراده، ولكن في ظل التغير المتسارع

لنمط العيش يتوجب علنا كباحثين الإسراع في دراسة وتدوين مختلف مكونات الثقافة والتراث المحلي نظرا للتهديد الكبير الذي طاله وخاصة في ظل التكنولوجيا والعولمة الثقافية.

## 5. قائمة المصادر والمراجع:

1. ايكه هولتكرانس . (1982). قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفلكلور. (الجوهري محمد، الشامس حسن، المترجمون) مصر: دار المعارف.
2. ب أحمد . (12 مارس , 2022). مقابلة اثنوغرافية . (الباحث، المحاور)
3. بلدية حمالة. (2 فيفري, 2022). مصلحة الاحصاء والعمران. توزيع السكان و المناطق العمرانية . ميلة ، حمالة ، ميلة / الجزائر .
4. بن جامين ستورا . (2012). تاريخ الجزائر بعد الاستقلال 1962-1988. (صباح ممدوح كعدان، المترجمون) دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب.
5. بيار بورديو . (1998). اسباب عملية. (أنور مغيث، المترجمون) بيروت: دار اللازمة الحديثة.
6. ت.أ. (13 مارس , 2023). مقابلة ميدانية . (الباحث، المحاور)
7. حداد ، ر. (15 مارس , 2023). مقابلة نصف موجهة . (الباحث، المحاور)
8. حسين عبد الحميد أحمد رشوان . (2008). التغير الاجتماعي والمجتمع . الاسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة .
9. حسين عبد الحميد أحمد رشوان. (2008). علم الاجتماع الريفي. الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
10. رشيدة ح . (18 مارس , 2023). (الباحث، المحاور)
11. شارلوت سيمور . (2005). موسوعة علم الانسان، المفاهيم والمصطلحات الانثروبولوجية . غير موجود: نسخة الكترونية .
12. مارسال موس . (2011). بحث في الهبة ، شكل التبادل و علته في المجتمعات القديمة. (المولدي الاحمر، المترجمون) بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
13. محمد سعيدي . (2007). العادات والتقاليد الشعبية ، ظاهرة التوزيع وابعادها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. مجلة آداب، جامعة ابو بكر بلقايد ، كلية العلم الانسانية و العلوم الاجتماعية، 88-98.
14. jaen M dallet . (1982). Dictionnaire kabyle-francaise . alger: ed sellaf.